لغة البكاء عند المتنبي

لهذا الشاعر الأعجوبة رحلة طويلة مع البكاء، فهو مصاب في والديه؛ إذ عاش يتيمًا، مصاب في وطنه؛ فهو مشرد منفي، ومصاب في مقاصده؛ فلم يتم له ما يطمح إليه من إمارة باذخة ومنصب عالٍ. ثم إن فراق الأحبة مزق قلبه حتى قال:

لولا مفارقةُ الأحبابِ ما وجَدَت لها المَنايـا إلـى أرواحِنَا سـبلا

ويصبح باكيًا من وحشة فراق أحبابه:

سَـهُرت بعد رَحيلي وحشـةً لَكمُ ثم استمرَّ مَريري وارْعَوَى الوَسَنُ

والرجل ملـذوع بهذا النـوى والشـتات الذي أبعده عن أحبابه، وأقصاه عن أصحابه:

فـراقُ وَمَنْ فارقـتُ غيـرُ مذمِ وَأَمٌّ وَمَـنْ يممـت خيـرُ مُيَمَّمِ

لكن المتنبي على رغم ظهور نفسه الجسورة، وروحه الطموحة في شعره، يمتلك نفسًا رقيقة، عنده دموع غزيرة حارة، يدخرها للنكبات ليسفكها على فراق من يحب يقول:

قد كنتَ أُشفقُ من دمعي على بَصَري فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكـم هانـا

ويقول:

عَشيّةَ يعدُونا عن النَظَر البُكَا وعَن لذَّةِ التَّوديع خَوفُ التَّفرقِ

ويخاطب نفسه فيقول:

بادٍ هواكَ صَبرتَ أم لم تَصْبِرا وبُكاكَ إنْ لم يجر دَمعُك أو جرى

والحقيقية أن شعراء العربية بدعوا في فن البكاء، وتفننوا في هذا الغرض، فأجود فن لديهم الرثاء؛ لأنه الصادق الذي لا رياء فيه، ولا مداجاة. فهذا الصمة القشيري يتفجع بقوله:

بكتْ عَيْني اليُمنَى فلما زجرتُها عن الجهلِ بعد الحِلْمِ أسبلتا معًا

وهو معنى لطيف ظريف، وقد وافقه الأعور السلمي في بيتين مؤثرين إذ يقول:

بكيتَ بعينٍ ليسَ فيها غَضَاضة وعينٌ بها ريبٌ من الحدَثَانِ

عَذَرتُك يا عيني الصحيحةِ بالبكا فما أنت يا عوراءُ والهملانِ

وتلطف الشاعر السعدي الشيرازي، فأبدع وأحسن ما شاء أن يحسن فقال:

بكتْ عيني غداةَ البينِ دمعًا وأخرى بالبُكا بخلت علينا

فعاقبتُ التي بالدمعِ ضَنَّتْ بأنْ أغمضتُها يوم التقينا

ولولا الاستطراد لأوردت أمثلة كثيرة على روعة هذا الفن عند الشعراء وإجادتهم له.

والشاهد أن المتنبي يبكي في مواطن، شأنه شأن الشاعر ذي العاطفة الجياشة، والقلب الرقيق، والروح المرهفة، كيف لا وهو الذي يقول:

خلقتُ أَلُوفا لو رجعتُ إلى الصِّبَا لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلبِ باكيًا

فهو يبين لك أن نفسه المتوثبة إلى المجد، الثائرة على الأعداء، لها عالم آخر من الحنين والعطف واللوعة. فالرجل إذا بكى، بكى بنفس مكلومة، مفجوعة منهكة، مصابة بسهام الحوادث كما قال:

رمانِي الدَّهرُ بالأرزاءِ حَتَّى فؤادِي فِي غشاءٍ من نِبَالِ
فصرتُ إذا أصابَتني سِهَامٌ تكسرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

إن بكاء المتنبي ليس مفتعلًا، بل بكاء رجل ملذوع، ملسوع ملدوغ، فلا تتهمه في اصطناع البكاء، وتكلف الدموع، بل هي براهين على ذوبان نفسه، واحتراق جوانحه.

obeikandl.com